الفصل الخامس

السلالات الأفريقية

الفصل الخامس

السـلالات الإفريقيـة

ليس سكان أفريقيا البالغ عددهم نحو ١٠١٠ مليون نسمة متجانسين في تركيبهم السلالي، حيث ينقسمون إلى عدد كبير من المجموعات البشرية ويتحدثون قرابة ٧٠٠ لغة مختلفة، وتدل الدلائل الأركيولوجية على أن أفريقيا قد عمرت بموجات بشرية متعاقبة وفدت من الشمال الشرقي ومن الشرق خاصة عن طريق القرن الأفريقي وكانت الموجة الجديدة تدفع سابقتها نحو داخل القارة حتي أن هناك اليوم بعض الجماعات الأصلية القديمة دفعتها الجماعات الأقوي والأحدث من نطاق السفانا الجنوبي الرعوي إلى صحراء كلهاري شبه الجافة.

ويمكن تقسيم السلالات الأفريقية إلى الجماعات الأتية (شكل ٥-١):

١- الأقزام.
٢- البوشمن والهوتنتوت (شعب الخويصان).
٣- الزنوج (السودانيون والبانتو)
٤- أنصاف الحاميين (النيليون الحاميون).
٥- القوقازيون (الحاميون والساميون).

١- الأقزام Pygmies :

يعيش الأقزام في نطاق الغابات الاستوائية في أفريقيا وهم من أقدم شعوب القارة ولهم خصائص مميزة وأبرزها أنهم قصار القامة جداً لا يتجاوز إرتفاع الواحد منهم ١٣٥ سنتيمترا ووزنه ٤٠ كيلو جرام والأذرع طويلة جداً بالنسبة للأرجل ولون البشرة يميل إلى الاحمرار الداكن، وقد يكون أسمر باصفرار والجسم يغطيه شعر خفيف مثل الزغب.

ويعيش الأقزام في جماعات صغيرة متباعدة ويحترفون الصيد والقنص والجمع وتقيم كل جماعة أكواخها الصغيرة في مكان منعزل من الغابة وقد اختلطوا ببعض

شكل رقم (٥-١)
السلالات البشرية في أفريقيا

جماعات البانتو المجاورة وأصبحوا بلغاتهم ويبادلونهم السلع فيعطونهم من نتاج الصيد ويأخذون منتجات زراعية مثل الموز والذرة.

والأرجح أن أوطان الأقزام كانت أعظم إتساعاً عما هي اليوم وكانت في الغالب تشمل منطقة بحر الغزال والبحيرات الكبري والغابات والادغال المنتشرة في حوض الكونغو إلى بلاد الكاميرون وسواحل غانا قبل إنتشار الزنوج فيها أما اليوم فإنهم يعتصمون بأشد الغابات كثافة في وسط أفريقيا، ويصل عددهم إلى ٥١،٠٠٠ نسمة ويتركزون في مناطق منعزلة في الكاميرون والجابون والكونغو.

٢- البوشمن والهوتنتوت:

يعد البوشمن من أقدم شعوب أفريقيا كذلك، وقد لايزيد عددهم في الوقت الحاضر على ٥٥,٠٠٠ نسمة، ويعيشون في وسط وشمال صحراء كلهاري في جنوب غرب أفريقيا وأنجولا والأقطار المجاورة وهم - مثل الأقزام- كانوا يعيشون في مساحة كبيرة في الأقاليم المدارية شمال وجنوب خط الاستواء واضطروا تحت ضغط شعوب أقوي وأكثر عددا إلى التراجع تدريجياً حتي صحراء كلهاري وهي منطقة التجاء وعزلة.

ويمكن بسهولة تمييز الصفات الطبيعية للبوشمن - فلا يزيد طول الفرد منهم كثيراً عن الأقزام (نحو ١٥٨ سم) وإن كانوا أكثر طولاً منهم والشعر لولبي جداً (مفلفل) والأطراف نحيلة والأيدي والأرجل صغيرة ولون البشرة يميل إلى الأصفرار والجلد يتجعد بسهولة والعيون ضيقة وبروز العجز بشكل واضح خاصة في النساء وهم يعيشون في جماعات صغيرة قليلة العدد تنتقل باستمرار في الصحراء ولا يعرفون الزراعة ولا تربية الحيوان ومستواهم الحضاري منخفض للغاية.

أما الهوتنتوت - فهم مجموعة بشرية يرتبط اسمها باسم البوشمن وهم يشبهونهم شكلا وثقافة - الا انهم قد تأثروا بعناصر ودماء غريبة خاصة مع البانتو، ويري «سلجمان» أن الهوتنتوت قد اختلطوا في الوطن الأصلي في منطقة البحيرات الكبري في الشرق بعناصر حامية وقد اتجه الهوتنتوت نحو الجنوب الغربي من جنوب أفريقيا إلى الجنوب من نهر كونين.

ويختلف الهوتنتوت عن البوشمن - في أنهم يعملون في رعي الماشية والأغنام ولكن أعدادهم تناقصت عن طريق الاندماج في الشعوب الجنوبية في أفريقيا خاصة مع المهاجرين الأوربيين وعبيدهم الذين صاحبوهم وجاءوا من جزر الهند الغربية ويعرفون بالمولدين أو ملوني منطقة الكاب ويعمل الكثير منهم كخدم وعمال وغير ذلك من المهن الدنيا.

وعموماً فقد زاحم الأوربيون البوشمن والهوتنتوت في أوطانهم وضيقوا سبل العيش في وجوهم فلم يتبق منهم الا عدد يسير لا يتجاوز الستين أو السبعين الفا وعلي كل حال فان هذا العدد يعد تافها بالنسبة لباقي سكان القارة الذين تجاوز عددهم ٧٧٨ مليون نسمة.

٣- الزنوج:

يسود الجنس الزنجي بخصائصه المعروفة إلى الجنوب من الصحراء الكبري والقرن الأفريقي – ويكون الزنوج ٧٠٪ من جملة سكان القارة وحوالى ثلاثة أرباع الجنس الزنجي في العالم، ويضم هذا الجنس بخصائصه المميزة مجموعة كبيرة من الشعوب ذات فوارق في القامة ولون البشرة وشكل الشعر وملامح الوجه ولذا يمكن تقسيمها إلى الأقسام الرئيسية التالية:

أ- الزنوج الحقيقيون (أو الزنوج السودانيون):

وينتشرون في غرب أفريقيا فيما بين نهر السنغال إلى الحدود الشرقية لنيجريا وعلى امتداد خليج غينيا، وتشمل مناطق انتشارهم الأقاليم الساحلية مثل جمهورية السنغال ومالى وغامبيا وغينيا بساو وغينيا وسيراليون وليبريا وساحل العاج وغانا وتوجو وبنين ونيجريا – وكذلك الوحدات الداخلية مثل مالى وبوركينافاسو.

والسمات الطبيعية التي تميز السلالات الزنجية هي شدة السمرة والشعر المفلفل والقامة الطويلة وبروز الفك وغلظ الشفتين ويعمل معظمهم بالزراعة، وقد ساعدت هذه الحرفة على تركز السكان وازدياد كثافتهم في بعض المناطق كما أدت إلى نوع من التخصص وتقسيم العمل ولكن يلاحظ أن الماشية نادرة للغاية في الأقاليم الساحلية بسبب انتشار مرض النوم الذي تنقله ذبابة التسي تسي.

وينقسم زنوج غرب أفريقيا إلى الكثير من الشعوب والقبائل التي تعيش في هذا الوطن الزنجي الكبير من نهر السنغال غرباً إلى بحيرة تشاد شرقاً وساحل غينيا جنوباً، وأبرزها قبيلة الولوف المتاخمة لنهر السنغال والسرر Serer والتوكولور Tokolor ثم الماندي أو الماندنجو إلى الشرق منهم وهم منتشرون بين المحيط الاطلسي غرباً وثنية نهر النيجر شرقاً ثم الصنغاي والمصي Mossi واليوروبا والإيبو والهوسا وغيرها.

ويتميز هذا النطاق بالنشاط التجاري الذي يمتد من قبائل الهوسا في شمالى نيجيريا إلى قبائل اليورويا في الجنوب حتي أن هناك طبقة وسطي أساسها التجار الذين يسهمون في تجارة الحاصلات الزراعية وهم أحفاد التجار الذين تعاملوا مع الأوربيين من قبل في المراحل الأولي للاحتكاك الأوربي مع غرب أفريقيا.

ب- البانتو Bantu :

أدت الهجرات الأفريقية على امتداد عدة قرون في وسط وشرق أفريقيا من منطقة البحيرات نحو الجنوب الغربي والجنوب إلى اختلاط ضخم للشعوب الزنجية والتي تعرف غالبا باسم الناطقين بالبانتو، أو البانتو فقط. ومعني ذلك أنها مجموعة زنجية لغوية واحدة بعكس زنوج غرب أفريقيا الذين تتعدد لغاتهم بدرجة كبيرة حتي تتجاوز الخمسمائة على أقل تقدير، ولكن ليس معني ذلك أن المتكلم في الجزء الجنوبي من القارة يستطيع فهم ما يقوله واحد من سكان الجانب الشرقي أو الغربي بل معناه أن اللغات التي يتحدث بها السكان في جميع أوطان البانتو متشابهة تشابها كبيرا كما تتشابه مثلا لغات الفرنسيين والأسبان والطليان بوصفها فروعا من اللغة اللاتينية(١).

ويبدأ خط البانتو - المحدد لأوطانهم شمالاً - من خليج بيافرا عند الحدود الشرقية لنيجيريا - ويمتد بعد ذلك في اتجاه شرقي مع تعرجات عديدة إلى الشمال ثم إلى الجنوب عبر الكونغو وزائير حتي منطقة بحيرات أعالي النيل ويدور حول شمال بحيرة فكتوريا ويعبر كينيا حتي مصب نهر جوبا على المحيط الهندي وإلي الجنوب من هذا الخط تعيش شعوب البانتو في شكل مثلث ضخم يشغل وسط أفريقيا وسط وجنوب أفريقيا.

وقد درج بعض الكتاب على تقسيم البانتو إلى ثلاث أقسام:

١- البانتو الشرقيون في أوغنده ورواندا وبورندي وكينيا وتنزانيا ومالاوي وزامبيا.
٢- البانتو الجنوبيون في زيمبابوي وموزمبيق وجنوب أفريقيا وبتسوانا وليسوتو وأجزاء من جنوب غرب أفريقيا.
٣- البانتو الغربيون في الكونغو والكاميرون والجابون وانجولا.

وعموماً فإن جملة سكان البانتو الزنوج في هذه الأقسام الثلاثة تصل إلى ١٥٠ مليون نسمة يعيشون في قرابة ثلث مساحة أفريقيا ويتكلمون لهجات عديدة من لغة واحدة مشتركة، ويعد الاقتصاد الرعوي عماد حياتهم في الجزء الشرقي من القارة جنوب الصحراء الكبري وفي السهول المرتفعة الجافة فيما عدا المناطق التي تنتشر بها ذبابة تسي تسي.

---

(١) محمد عوض محمد- الشعوب والسلالات الإفريقية- القاهرة- ١٩٦٦- ص٧١.

وتعد الماشية الحيوان الرئيسي للبانتو، بل أنه في بعض المناطق خاصة في الشرق تتحدد مكانة القبيلة وهيبتها بعدد ما تملكه من رؤوس الماشية وتقوم هذه الجماعات بزراعة ماشية لسد احتياجات أفرادها، ولذا فان التبادل التجاري قليل فيما بينها – بل أن مفهوم السوق يعد ظاهرة حديثة للغاية في شرق أفريقيا.

وعلي العكس من ذلك – فان المناطق المزدحمة بالسكان حو،ل بحيرة فكتوريا – خاصة في أوغنده – تتميز بالزراعة والاعتماد على المحاصيل النقدية التي يتزايد الطلب عليها ولذا تسود التجارة وتنتشر الأسواق وتكون جماعات البانتو أكثر تقدماً من غيرها.

وفي أقصي جنوب أفريقيا حيث استوطن البيض في أجود الأراضي وادخلوا طرقا حديثة للزراعة – فقد أثر ذلك في تدهور النظام القبلي لدي البانتو بشكل واضح. وأهم جماعات البانتو الجنوبيين – جماعات السوتو – تشوانا Suto Chuana والزولو – اكسوزا Zulu– Xosa.

وقد ساعدت بتسوانا وليسوتو – البريطانيتان سابقاً – على المحافظة على نمط الحياة والشخصية القبلية لجماعات السوتو – تشوانا – وذلك لأن هاتين الدولتين لم تتعرض لاستيطان البيض بدرجة كبيرة بينما شعب مثل شعب الزولو الذي كان من أعظم شعوب البانتو في جنوب القارة (يعيش إلى الشرق والجنوب من حافة دراكنز برج الجبلية) قد عاني كثيراً من التفكك الناتج عن تغلغل البيض واستيطانهم أراضية مما أثر على نمط الحياة الأصلية واستحدثت أنشطة جديدة مثل التعدين والصناعة والزراعة العلمية.

وفي النطاق الغابي الأدني من سهول الكونغو تزداد غزارة الأمطار وتسود ذبابة تسي تسي وغيرها من الأفات والأمراض مما جعل الزراعة – وليس الرعي – حرفة رئيسية، وتمارس بعض جماعات البانتو الغربيين مثل الفانج Fang الذين يعيشون في أفريفيا الاستوائية – الزراعة المتنقلة في المناطق التي يزيلون غطاءها النباتي، ونادراً ما يستقرون أكثر من عامين أو ثلاثة في المكان الواحد وتمارس جماعات أخري مثل الباكوبا Bakuba في حوض نهر كاساي الزراعة المستقرة وتلعب التجارة دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية ولذا فان هناك أسوافا منتظمة لدي هذه الجماعات.

١- النيليون الحاميون Nilo- Hamites

تعيش بعض الجماعات المختلطة بين الحاميين والزنوج في أجزاء من أعالى حوض النيل وهضبة شرق أفريقيا وتزداد نسبة الدماء الحامية ابتداء من دائرة العرض السادسة جنوب خط الاستواء وشمالاً حتي أعالى النيل وبحر الجبل. وقد جرت العادة على تسمية هذه السلالات بالنيليين الحاميين - كما كانت تعرف من قبل بأنصاف الحاميين Half- Hamites.

ويشتمل موطن النيليين الحاميين على الجزء الجنوبي الشرقي من أوغنده والغربي من كينيا والشمالى من تنزانيا وينقسمون بدورهم إلى ثلاثة أقسام هي:

١- المجموعة الشمالية: وتشمل الجماعات التي تعيش في السودان الجنوبي الشرقي وحدها الجنوبي هو الحد السياسي بين أوغنده والسودان وأهم تودكانا قبيلة الباري Bari.

٢- المجموعة الوسطي: وتمتد فيما بين بحيرة كيوجا غربا إلى بحيرة رودلف شرقاً وتشمل الركن الشمالى الشرقي من أوغنده والشمال الغربي من كينيا.

٣- المجموعة الجنوبية: تشمل الجزء الغربي من كينيا وتمتد شمال تنزانيا وهذا هو الجزء الذي يحف به البانتو من الشرق ومن الغرب، وأهم قبائل هذه المجموعة قبيلة النانديNandi التي تعيش في المرتفعات الغربية لكينيا وقبيلة الماصاي والتي تنتشر بعد ذلك جنوبا حتي تنزانيا وحتي امتداد النيليين الحاميين عند دائرة عرض ٦° جنوباً.

النيليون Nilotes:

يعيش النيليون - وكما تدل تسميتهم - في أعالى حوض النيل في السودان وأوغنده وكينيا وغرب أثيوبيا وأهم مجموعة منهم تلك التي تعيش في السودان الجنوبي وخاصة في الاقاليم الوسطي منه، ويتشابه النيليون في اللغة والتقاليد والثقافة - كما أن هناك تشابها كبيراً بينهم وبين النيليين الحاميين مثل تمجيد الماشية وايثار حرفة الرعي والنظام والاجتماعي - ويكمن الاختلاف الرئيسي بينهما في اللغة السائدة.

ويتميز النيليون بصفات طبيعية واضحة فهم طوال القامة جداً (١٨٠ سم) وأجسامهم نحيفة وبشرتهم شديدة السواد وملامحهم الظاهرية أكثر حامية من الزنوج مما يدل على شدة تأثرهم بالمؤثرات الحامية.

وأهم القبائل النيلية في أعالى النيل قبائل الليوLuo في كينيا وأنشولي Achule في شمال أوغنده ثم القبائل المنتشرة في جنوب السودان وهي الدنكا والنوير في الجزء الأدني من بحر الجبل والغزال والشلك على الضفة الغربية للنيل الأبيض وشعب الأنواك في حوض نهر بارو – أهم روافد السوباط – ومعظم أوطانه داخل حدود أثيوبيا .

القوقازيون (الحاميون والساميون)

سبق أن لوحظ أن السلالات الزنجية في أفريقيا – على قدم عهدها بالقارة – لم تنتشر فيها كلها بل كانت أكثر إنتشاراً في الأقاليم الوسطي، والجنوبية أما العناصر القوقازية – فقد دخلت أفريقيا من الشمال والشرق – وقد اصطلح علماء الأجناس على تقسيم هذه العناصر في أفريقيا إلى قسمين هما: الحاميين والساميين ويبدو أن التقسيم بينهما قائم على أساس لغوي بصفة أساسية، فالحاميون هم الذين يتكلمون لهجات يري علماء اللغات أنها من أسرة لغوية واحدة أصلها من جنوب اسيا وجاءت في عصر متقدم بحيث لم يبق لها أثر الآن في تلك القارة. أما الساميون فهم الذين يتكلمون لغات مشتقة من جزيرة العرب في وقت يوصف بأنه متأخر نسبياً، ومع ذلك فهناك بعض الكتاب ممن يجعل اللغات السامية والحامية من أسرة لغوية واحدة[١].

الحاميون:

يقسم «سلجمان» الحاميين إلى مجموعتين على النحو التالي[٢]:

أ- الحاميون الشرقيون: ويحتلون ساحل البحر الأحمر من القصير حتي سواحل المحيط الهندي في الصومال ويحدهم النيل والحافة الغربية لهضبة الحبشة في الغرب، وأبرز الجماعات التي تضمها هذه المجموعة:

(١) محمد عوض محمد: المرجع السابق، ص٢٣٣.

(٢) س.ج. سلجمان السلالات البشرية في أفريقيا: ترجمة يوسف خليل القاهرة، ١٩٥٩، ص ص ٨٦-١٣٩.

١- المصريون القدماء والحديثون برغم ما قد دخل مصر حديثا من مهاجرين جدد.
٢- البجة
٣- النوبيون.
٤- الجلا.
٤- الصوماليون.
٦- الدناكل.
٧- الأثيوبيون برغم اختلاطهم بعناصر سامية وزنجية.

ب- الحاميون الشماليون: وهم الذين يشغلون شمال أفريقيا من مرتفعات أطلس شمالا حتي نهر النيجر جنوبا وأهم جماعاتهم:

١- جماعات البربر في برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب.
٢- سكان الصحراء مثل الطوارق والتبو.
٣- الفولا Fula أو الفولاني في أعالي نهر النيجر حتي السنغال وقد اختلطوا بالزنوج في غرب القارة وعلي الحافة الجنوبية للصحراء.

الساميون:

يمثل الساميون - أو العرب - أخر هجرة قوقازية وفدت إلى افريقيا باستثناء هجرات المستوطنين الأوربيين حديثاً في جنوب القارة - وقد وفدت موجات الساميين مع دخول الاسلام في القرن السابع دخلوا أفريقيا من الشمال الشرقي ومن الشرق - وتعاقبت موجاتهم بعد ذلك خاصة فيما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر.

وقد امتزجت العناصر السامية مع الحاميين الشرقيين والشماليين امتزاجاً ثقافيا كبيراً وأعطوهم الدين الاسلامي واللغة العربية، ومع ذلك فان هناك جماعات عربية قد استقرت في أوطان صحراوية محددة مثل قبائل الأبالة، وكذلك هناك جماعات أخري اختلطت بزنوج السودان وكونوا قبائل البقارة في وسط السودان.